مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب المجلد 16 العدد 1، 2019، ص ص 33- 56

التركيب الانفعالي بين القواعد النحوية التركيبية والقيود الدلالية
الترخيم أنموذجاً

يحيى عبابنة *

تاريخ الاستلام 2018/5/20 تاريخ القبول 2018/8/14

ملخّص

تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن أن اللغة الانفعالية قد تحتاج إلى طاقات انفعالية تجعل سيطرة القواعدية على الأداء اللغوي محدودة، وهذا أمر نحمله على أنّ مواقف الانفعال العالي تتطلب نغمة مختلفة عن النغمة المستوية في حال اللغة الإخبارية، ولهذا فقد اخترنا أحد أبواب الأداء الانفعالي التي تمثل الأداء التلقائي للمتكلمين، وهو باب الترخيم الذي نحمله على التحبب والطرب والدلال في أغلب المواقف اللغوية المحمولة على باب النداء، وهو أمر يجعل هذا الباب واقعاً بين الدلالة والتركيب، وقد اهتمت الدراسة ببيان أوجه خروجه على القواعد وأشكاله في الأداء اللغوي الحي، واستعملنا في دراسته المنهج الوصفي التحليلي.

مشكلة الدراسة

يميل النحو العربي إلى الاعتداد بالقواعد التركيبية في أغلب أبوابه بعيداً عن النواحي الدلالية، وهو حال نحو الجملة بصورة عامة فهو يرتكز إلى القواعد التي يمكن أن ننظر إليها على أنها قواعد جامدة لا تهتمُ كثيراً بالنواحي المعنوية أو السياق التداولي الذي يرتبط بالأداء اللغوي في المواقف الاستعمالية المختلفة.

على أنّ هذا الحكم لا ينطبق تماماً على جميع الأبواب التي تخضع لقواعد الجملة أو نحوها، إذ إنّ الموضوع في بعض هذه الأبواب يدفع باتجاه تأسيس قواعد رديفة لهذه القواعد، وهي قواعد دلالية ما كان نحو الجملة يعتد بها لولا هذه الأداءات التي اصطدمت بالقواعد التركيبية الجافة، وهو أمر ينطبق على الأداء الانفعالي الذي اعترف النحو العربي بأنها جُمَلٌ تامة التركيب على الرغم من عدم ظهور عناصر التركيب الأساسية، أو ما أطلقوا عليه مصطلح "عناصر التركيب الإسنادي"، ومن هذه الأبواب التي تظهر الفرق الكبير في انطباق القواعد التركيبية الجامدة عليها

© جميع الحقوق محفوظة لجمعية كليات الآداب في الجامعات الأعضاء في اتحاد الجامعات العربية 2019.

* قسم اللّغة العربيّة، جامعة اليرموك، إربد، الأردن.

مع وجود ما نطلق عليه في هذه الدراسة مصطلح "القواعد الدلالية" فيها باب الترحيم الذي سنتناوله على أنه مثال واحد يمثّلُ هذه المشكلة، مع الاعتراف بأنّ معظم أبواب المنصوبات تشتمل على هذه المسألة، وهو أمر ربما كان السبب فيه تلك النظرة الحازمة إلى الفتحة على أنها علامة المفعولية، مما سبَّبَ افتراقاً بين الأداء والقاعدة التركيبية، وهو أمر دفع إلى محاولة التقعيد الدلالي في بعض الأبواب، مما أوجد خرقاً للتشدُّد في التقعيد التركيبيّ، ومنح النحو العربي القديم مرونة هائلة في الاعتداد بالتداول الاستعمالي، وأدّى بالتالي إلى وجود مستويين من مستويات التفاضل في الأداءات اللغوية كما سيتّضح من هذه الدراسة.

ومما يمكن أن يضاف إلى هذا الأمر أننا لا يمكن أن نتحدّث عن "قواعد دلالية" في النحو العربي، ولهذا فقد اخترنا في مكوِّنات عنوان هذا البحث مسألة "القيود الدلالية" فقد لاحظنا أن النحويين لم يهتموا كثيراً بمسألة "قاعدة دلالية" على الرغم من أن تحليل بعض قواعدهم التركيبية كان يفضي إلى الدلالة كما سيتبين لنا، ويؤيّد تداخل القواعد التركيبية مع القيود الدلالية في الأبواب الانفعالية ما نلحظه من انتهاك قوي للقواعدية، وفقاً لنظرية الأفضلية التي نشير إلى جداولها في هذه الدراسة بين الفية والفينة، ولهذا، فإننا نؤيّد ما وصل إليه الزمخشري من نتيجة باهرة في هذا الموضوع، عندما ذكر أن الترخيم هو حذف في آخر الاسم على سبيل الاعتباط[1]، وهو حُكم جريء تؤيده هذه الدراسة.

مادة الدراسة

سنجد أن كتب النحو العربي لم تحاول الفصل بين الأبواب التي كانت قواعدها ذات صبغة تركيبية محضة، والأبواب التي اختلطت فيها هذه القواعد بأخرى دلالية خارجة عن الناحية التركيبية، وهي قواعد تضفي نوعاً من المرونة على قواعد النحو العربي، وإن كانت تجربة الفصل بين هذين النوعين من القواعد غير مكتملة الجوانب، ولو أنها عمّمت على الأبواب النحوية كافة لكانت من وجهة نظر هذه الدراسة من أكمل التجارب التقعيدية التي لا تصبغ القواعد النحوية بالحدة أو إلغاء بعض المادة اللغوية لحساب احترام القواعد احتراماً كبيراً على حساب المادة اللغوية والهدف من العملية اللغوية، وهو هدف التواصل اللغوي واستغلال طاقات اللغة الاجتماعية، ولهذا، فقد اخترنا باب الترخيم مثالاً على هذا، مع الأخذ بعين الاعتبار الشواهد الحية واعتراض النحويين على بعض صورها التي أدرجوها مع تلك القواعد التركيبية التي تخص باب الترخيم، مع مراعاة ما يمكن أن يكون خاضعاً لباب التفاضل اللغوي، وهو الموضوع المنتقص في قواعد النحو الذي ينظر بإجلال كبير للنمط القواعدي ولو كان تركيبياً فقط، وهو أمر ينظر إلى القواعد الانفعالية الدلالية على أنها موضوع مرافق للتراكيب.

أسئلة الدراسة:

تضع هذه الدراسة هدفها لحل مشكلها الأهم وهو توضيح سبب المزج بين الجانب الدلالي والقواعد التركيبية في أبواب تتعلّق بالنداء خاصة، وبأبواب الأداء الانفعالي للغة، وذلك على النحو الآتي:

- هل كان للأداء الانفعالي أثر في التنويع القواعدي بين قواعد الترخيم الدلالية والجانب التركيبي؟
- هل يمكن تعميم هذه المسألة على الأبواب ذات الصبغة الانفعالية في الأداء اللغوي؟
- هل يمكن بعد هذا أن يكون الأداء اللغوي قابلاً لمسألة التدريج القواعدي؟
- هل كانت الشواهد التي ساقها النحو العربي مهتمّة بالقواعدية المحضة على حساب السياق الاستعمالي من الجانب التحليلي على الأقل؟
- هل يمكن الاعتماد على العامل في تفسير التغيُّر الإعرابي في الأبواب ذات المنطلق الانفعالي؟
- هل كان برجشتراسر محقّاً في تعميم حالة الترخيم على أشكال الحذف الأخرى على مستوى الكلمة والعبارة؟[2]

منهج الدراسة:

وفي سبيل الإجابة عن هذه الأسئلة، فإنّ الدراسة تلجأ إلى المنهج الوصفي التحليلي "التفسيري" الذي يصف الظاهرة بأدوات لغوية غير مشتملة على التأويل المعتمد على الأدوات غير اللغوية للوصول إلى أحكام وإجابات.

وستعرضُ هذه الدراسة مادتها على آخر ما يمكن أن تعرض عليه من النظريات اللغوية المهتمّة بالارتكاز إلى استعمال اللغة لنبذ تلك الأحكام التي لا تدخل في علم اللغة، وعلى رأسها نظرية الأفضلية التي تهتمُّ بالمفاضلة بين التراكيب اللغوية على أساس تحقيق العناصر القواعدية فيها، ولكننا سنخصُّ اللغة العربية بأفضلية ثانية، وهي الاعتماد على صحّة الاستعمال بغض النظر عن تحقق العناصر القواعدية القياسية، ولذا فإنّ مادة الدراسة ستكون من المادة اللغوية المستعملة استعمالاً فعلياً.

وستلجأ الدراسة في بعض مفاصلها إلى تحكيم جداول الأفضلية لتبيين الفرق بين القواعدية الصارمة، والأداء اللغوي الخاضع للوظيفة اللغوية، وهي توصيل الرسالة بين طرفي العملية اللغوية: المرسل والمتلقّي.

الدراسات السابقة:

أما بخصوص أدبيات الدراسة من حيث مرجعيتها ودراساتها السابقة فإنّ الإشارة إلى دراسات القدماء وكتب التراث ستكون مفيدة إذا علمنا أنّ هذه الدراسة تنفرد عن دراسات المحدثين بأمور كثيرة، أهمها أننا عمدنا إلى مسألة "القواعد الدلالية" فكثيراً ما يعمد الدارسون المحدثون إلى اتهام الدرس النحوي من هذا الجانب، وهؤلاء يهتمون بتوجيه تهمة إهمال الدلالة، أو إلى القول إنّ النحاة لا يهتمون بالتداول الاستعمالي لصالح القواعد التركيبية الجامدة.

ولا يمكن أن نتجاوز دراسات العلماء العرب فيما يخص الجوانب الدلالية، فهو أمر لم يَفُتْهم، ولكنهم لم يجعلوا للدلالة أثراً يتحكّم بالتراكيب، بل جعلوا القواعد التركيبية هي الأساس والمنطلق لدراسة التركيب، وهنا لا بدّ من الإشارة إلى أن الأمر ظاهرٌ في الدراسات النحوية منذ القِدم، وأشير إلى أنّ السيوطي لخّص كثيراً من هذه القواعد في كتابه: "همع الهوامع"، وأورد عليها عدداً كبيراً من الشواهد التي كان ينطلق في تحليلها من منطلق القاعدة والخروج عليها، وهو منهج العلماء الذين سبقوه.

ونحن نرى من هذه الناحية ضرورة الإشارة إلى بعض المسائل المتعلّقة بأدبيات هذا الموضوع:

- من النادر أن نرى إشارات إلى موضوع الأفضلية والفصل بين موضوع أفضلية الاستعمال وأفضلية القواعدية، وهو أمر تهتمُّ به دراستنا هذه.
- إنّ الفصل بين القواعدية التركيبية والقواعدية الدلالية أمر لا يكاد يهتم به أحد في هذه المسألة، فالنحويون يدرسون الترخيم وغيره من الأبواب الانفعالية على أنه أمر يتعلّق بالجانب التركيبي في الأعم الأغلب، وأما القدماء فقد اهتموا بإبرازه دون إفراده بمبحث خاصّ أو النصّ عليه صراحة.
- يمكننا الإشارة إلى الجهد الطيب الذي بذله أحمد كشك في كتابه: "وظائف الصوت اللغوي، محاولة لفهم صرفي ونحوي ودلاليٍّ"، وقد تحدّث في القسم الذي خصصه للوظيفة التطريزية (البروسودية prosodic) عن تطريز التنغيم، وخصص قسماً منه للحديث عن النداء والتنغيم، وهو أمر يلتقي مع الدلالة في هذا الباب[3]، وإن كان اللقاء من طرف بعيد منهجياً، فنظرات الدكتور أحمد كشك تلتقي مع المنهج الوصفي التقريري في أغلبها، وأما هذه الدراسة فمن المهم القول إنها ليست تقريرية تركيبية، بل هي تحليلية تفسيرية.

القواعد التركيبية والدلالية للترخيم

لَمَّا كانت القواعدية العربية تهتمُّ بالناحية التركيبية وتحقيق العناصر الرئيسة في التركيب اللغوي، وهي عناصر الإسناد[4]، فمن المنتظر أنْ نجد هذا في أبواب التركيب النحوي كلها، بما فيها باب الترخيم المحمول على النداء خاصة، ومن المعلوم لدينا أنّ باب النداء برمّته باب انفعالي في انتمائه الأدائي الدلالي، وأما الترخيم فهو باب يستهلك كثيراً من المشاعر وانفعالات النفس كونه من الأداءات التي تصدر عن المحبة والطرب والفرح والابتهال، ومع هذا فقد كانت قواعده التركيبية لا تخرجه عن باب النداء نفسه[5]، فهو مكوّن من أداة النداء نفسها التي تستعمل في النداء العادي الذي يهدف إلى إقبال المنادى على المنادي بوجهه أو تنبيه الغافل أو النائم أو إقبال المعرِض[6]، مع وجود قرينة المعنى التي جعلت النحويين يخرجون الباب قليلاً عن حدّة القاعدة التركيبية، وهي حذف أواخر الأسماء القابلة لهذا الحذف كما سيأتي، ونزيد على هذه الحدّة أيضاً أنّ الجملة في النحو العربي جملة إسنادية مكوّنة من المسند والمسند إليه[7]، وهما الركيزتان الأساسيتان اللتان تؤكّدان صحة الجملة وانتماءها إلى ما يرون أنه أفضليتها القواعدية الرئيسة، ودونها لن يكون للجملة أو غيرها رخصة في الصحة، وهو الأمر الذي نجده في النداء العادي الذي يخلو من الناصب (العامل الناصب) وفقاً للقاعدة التي تقول إنّ حرف النداء من الحروف غير العاملة[8]، وهو غير صالح للإسناد أيضاً[9]، ولما كان الاسم بعدها منصوباً أو في موضع النصب، فإنه يحتاج إلى عامل نصب يسعون منه إلى إقامة عناصر الإسناد وتفسير حركة النصب على آخر الاسم المنادى[10]، وقد ذهبوا إلى تقدير فعل يحقق الغايتين معاً، وهذا الفعل هو (أدعو أو أنادي)[11]، وقد قرروا أنّ هذا الفعل محذوف وجوباً لا يمكن إظهاره، ونابت عنه (يا) لفظاً وتقديراً، وهو محاولة منهم لرأب الصدع الذي ستبدو عليه الجملة التي ستتحوّل من جملة انفعالية إنشائية إلى جملة خبرية عادية[12].

ومن الشروط الدلالية التي لا تحتاج إلى أدلة لعدم وجود أمثلة تخترقها أن يكون الاسم المرخّم من غير باب الاستغاثة أو الندبة[13]، وهو أمر مهمٌ لتعارض دلالة الترخيم المتعلّقة بالتحبب أو التطريب مع الندبة المشتملة على أعلى مراتب البكاء، والاستغاثة التي تطلب فكّ الضيق عن المكروب عن طريق توجيه نداء الاستغاثة إلى عالي المرتبة أو المستغاث به، وهو مقام يختلف عن مقام الترخيم، فالاسم المستغاث به يقصد في حالات الضيق وطلب العون، ولأن المستغاث به ممن خوّلهم المستغيث القدرة والهيبة، ولهذا فإنّ المستغيث يظهر مهابته؛ لأن المستغاث به عظيم بالنسبة إلى المستغيث، وهو مما امتنع معه باب الترخيم لتضاربه مع دلالاته[14].

وأما الندبة، فتفجُّع وعويل وبكاء، فلا يجتمع مع الترخيم لأنه يناقضه في المعنى أيضاً، فالترخيم كما قلنا تطريب ورخاء، وأما الندبة فنواح وبكاء[15].

وذكر ابن منظور أنّ الندبة تفجُّعٌ وبكاء؛ لأنّ ندب الميت هو البكاء عليه وتعداد محاسنه، والثناء عليه في قول النادبات: وافلاناه[16]، ويسمى المتفجَّع عليه: المندوب[17]، وأما الترخيم، فهو، لغوياً، من الرخيم، وهو الْحَسَنُ الكلام، والرخامة لينٌ في المنطق، يكون حَسَنا في صفات النساء، والترخيم من هذا لأنه التليين[18].

ومن شروط ترخيم المنادى أن يكون معرفة[19]، وهو أمر تتنازعه سمات التركيب والمعنى، فالتركيب يتعلّق ببنية الاسم المنادى، وأما المعرفة فذلك أننا لا ننادي النكرة إلا على وجه مخصوص، وسنرى أنّ الأداء اللغوي لا يمكن حدّه بهذا الشرط، بل إنه يتجاوز عنه في الأداء الانفعالي المسوّغ بهذه الانفعالية، والمقصود بهذا الشرط النكرة غير المقصودة؛ لأنّ المقصودة تُعَرّف بالنداء، وأما غير المقصودة فنداء غير موجّه لمنادى بعينه إلا على سبيل القصد الدلالي، كما في قول المهلهل:

ضربت صدرها إليّ وقالت يا عديّاً لقد وقتك الأواقي[20]

فقد انتهت عملية الخطاب في هذا البيت بنداء العلم على أنه نكرة غير مقصودة وهو أمر يخالف القواعد التركيبية تماماً؛ لأنّ نداء العلم لا يمكن أن يحدث قواعدياً على هذه الصورة (يا عديّاً)، بل يبنى على الضم (يا عديُّ)، ولكنه استحدث صيغة في النداء تشير إلى أن المعنى المقصود هو إنكارها معرفة عديّ، بل تشير بذلك إلى أنه غير معروف، وقد ذكر ناشر الديوان أنه قال هذه الأبيات متحدّثاً عن ابنته أو زوجته عندما كان في الأسر[21].

ولهذا فإنّ الترخيم يصبح عديم الفائدة لفقدانه الشرط الدلالي والقصدية المعنوية المتوافرة في النداء، وهي إظهار الإعجاب والحب للمرخّم، ولا يمكن إظهار هذا إلا إذا كان المرخّم معروفاً أو مشاهداً يظهر له المتكلم هذه المشاعر والانفعالات.

ومن ثمّ فإنّ شروط النداء هي أن يكون غير مستغاث به ولا مندوباً، وهما بابان فرعيان محمولان عند النحويين على النداء، وهو أمرٌ يتعلق بالدلالة أيضاً؛ لأنّ باب الاستغاثة باب من الأدنى إلى الأعلى، وهو موقف يقتضي الحاجة إلى طلب الغوث والمساعدة من عظيم، ولا يستدعي التطريب، وأما في الندبة فالأمر متعلّق بالوجد والبكاء والحزن، والترخيم لا يتّفق مع هذه الدلالات.

ومن الشروط التركيبية المحضة للترخيم أنّ المنادى المضاف لا يرخّم، فلا يُرَخَّمُ مثلاً: يا عبد الله أو يا صلاح الدين أو يا رئيس التجمُّع[22]، أو غيرها من الأسماء المضافة؛ لأنّ تركيب الإضافة يختلُّ إذا رُخّم، وهو ما يجحف بالسبب الذي دعا إلى هذه الإضافة.

ومن القواعد التي حملها النحويون على المستوى التركيبي أنّ الاسم المختوم بتاء التأنيث "التي تُقلب عند الوقف هاء" يمكن ترخيمه[23]، وهو أمر دلالي يتعلّق بطبيعة التأنيث أكثر مما يتعلّق بطبيعة بنية الاسم، ذلك أنّ أكثر ما يرد فيه الترخيم خاصٌ بالإناث؛ لأنهنّ مظنة التحبب والتطريب والدلال، على الرغم من أنه قد يعني الذكور أيضاً لا سيما الأطفال منهم، وما دفع النحويين إلى هذا التقسيم القواعدي أنهم لاحظوا أنّ الاسم المختوم بهذه التاء يرخّم بحذفها فقط، نحو: يا فاطمُ في "يا فاطمة"[24]. ولذلك فإنّ المجرَّدَ من تاء التأنيث لا يرخّم إلا إذا كان اسم علم يتكون من أكثر من ثلاثة أحرف صامتية، إلا في سياقات شاذة عن قواعد النحويين، نحو كلمة (صاحب)، كما في قول الشاعر:

صاحِ شَمِّر ولا تزلْ ذاكرَ الموْ تِ فنسيانُهُ ضلالٌ مبينُ[25]

ولا يخفى ما في هذا الشاهد من اعتبارات دلالية مهمة، فـ (صاحِ) اسم مرخّم على لغة من ينتظر، وهو أمر قواعدي ينسجم مع الشروط التي وضعها النحويون، وأهمها أنه منادى وإن كان نكرة، فهو نكرة مقصودة مما يُتَخَلَّصُ من تنكيره بالنداء، وهو اسم منادى، ولهذا قبل الترخيم، وأما الناحية الدلالية، فالأمر نُصح عالي الوتيرة؛ لأنه يتعلق بذكر الموت والبعد الديني الذي يحضُّ على ذكره؛ لأن نسيانه "ضلال مبين"، ولهذا، فإنّ ترخيمه يخص النصيحة للصاحب والرفيق.

وقول امرئ القيس:

أصاحِ ترى برقاً أريكَ وَميضَهُ كلمعِ اليديْنِ في حَبيٍّ مُكَلَّلِ[26]

الأداء اللغوي	ترخيم في النداء	معرفة بالعلمية	الالتزام بالحركة	حذف حرف
يا صاحب "اسم علم"	✓	✓	✓	✓
أصاحِ ترى برقاً "مشتق ليس علماً"	✓	☒	✓	✓
صاحِ شمِّر	✓	☒	✓	✓

فقد جاء ترخيم (صاحب) كما بدا من جدول الأفضلية في هذين الشاهدين، وهو لفظ ليس له حظٌ من العلمية، ولكنه لفظ نكرة مقصودة، وخصّص بالنداء فصار بمنزلة الاسم العلم، زيادة على ما يحتمله معنى الاسم (صاحب) من دلالات المحبة؛ لأنه متعلّق بالصحبة، والتزم بسائر الشروط التركيبية التي يفرضها الترخيم، ما عدا العلمية التي التزم بها المثال التعليمي الأوّل، ولم يلتزم بها الشاهدان الواردان.

فأمّا إذا كان (صاحب) اسم علم لشخص ما، فإنه يكون قد حقق الصورة المثالية لترخيمه (قواعدياً ودلالياً)، وأما إذا كان نداء من معنى الصحبة والرفقة، فإنه ينقصه شرط غير مهم من حيث الصحة القواعدية، وهو العلمية، ولكنه لم يكن مرفوضاً لأنه نكرة مقصودة.

ويمكن ان نضمّ إلى هذا التحليل ما ورد في الشاهد الشعري المرويّ عن العرب، وهو قول الشاعر:

جاريَ لا تستنكري عَذيري

سَيْري وإشفاقي على بعيري[27]

فقد رخّم لفظ (جارية) بعد أن أنزل هذا اللفظ منزلة العلمية، كما فعل عندما رخّم (صاحب) في الأداء اللغوي السابق.

وقد لا يكون مهمّاً أن نذكر بعض القواعد التي تتعلّق بالجزء أو الأجزاء التي تحذف من الاسم المرخّم، وما إذا كان المحذوف حرفاً واحداً أو أكثر وفقاً لتعبير النحويين العرب ونظرتهم إلى المكونات الصامتية، كما في حذف "الواو والراء" إذا رخمنا اسم العلم "منصور" مع الأخذ بعين الاعتبار الشروط الأخرى وتحقُّقها فيه، فهذا أمر تداوليٌ تحققه اللغة دون أن يمكننا سؤالها عن السبب واختراق القواعدية، كما في قول الفرزدق يخاطب مروان بن عبد الملك:

يا مروَ إنّ مطيّتي محبوسةٌ ترجو الحِباءَ ورَبُّها لم ييأسِ[28]

فقد حذف الألف المدية منه، والنون، وهو أمر استعمالي يصعب أن يجيب عنه أحد، ولكن المهم في هذا ليس المحذوف، بل جرأة اللغة عندما اخترقت قاعدة دلالية متمثّلة بترخيم اسم الخليفة، وهو أمر يشير إلى إظهار القرب النفسي الذي يحسه الشاعر تجاهه ومحبته له أكثر من الاهتمام بالمحذوف، وما إذا كان حرفاً أو حرفين، ونحن نرى أن ترخيم "مروان" على "مروَ" أمر يدعو إلى مواجهة مع القاعدة إذا أخذنا البيت معزولاً عن سياقة ومعرفة اسم "المرخّم" إذ إن الأمر يلتبس على القواعدية، وما إذا كان المرخّم هو "مروان" أم إنّه "مروة"، وهو الأقرب إلى الدلالة في حالة اجتزاء الشاهد وعزله عن سياقه.

الأداء اللغوي	ترخيم في النداء	معرفة بالعلمية	الالتزام بالحركة	حذف حرف
يا مروَ إنّ مطيّتي	✓	✓	✓	☒

فقد التزم بالشروط القواعدية، ولكنها كانت غير كافية، لأنه حذف أكثر من حرف، أي: مروان صار بعد الترخيم (مروَ)، وحذف الألف والنون، وهو ما يجعله يلتبس بترخيم (مروة) اسم المرأة، والذي يظهر الأمر هو الموقف أو السياق التواصلي الذي وجدت فيه الرسالة اللغوية.

وقد يتبدّى الأمر في مثل هذه المسألة في مثال آخر يظهر المعني ونتجاوز فيه عن القواعدية وعدد المحذوفات، كما في قول لبيد بن ربيعة:

يا أسمَ صبراً على ما كان من حَدَثٍ إنّ الحوادثَ مَلْقِيٌ ومُنْتَظَرُ[29]

فتركيب الاسم المرخّم يشتمل على الألف المدّيّة، وهي حركة من بناء الكلمة التي أوحى رسمها للعلماء العرب بأنها حرف (صامتي) وليست حركة مديّة طويلة، ولذا فقد حذف الهمزة بعدها حذف ترخيم، وحذف جزءاً من الحركة الطويلة ليوحي بالترخيم:

yā>asmā >u < yā>asma

وهو ترخيم محمول على لغة من ينتظر، أي ينتظر الحرف الأخير، على الرغم من أنّ الفتحة الظاهرة في آخره جزء من صوت المدّ.

التركيب	الترخيم في النداء	المعرفة بالعلمية	الالتزام بالحركة	حذف حرف
يا أسمَ صبراً	✓	✓	✓	✓

يُظْهِرُ جدول الأفضلية هذا أنّ النمط قد حقّق شروط الأفضلية القواعدية كاملة، ولكنّ الأمر لا يبدو كذلك إذا نظرنا في المكوّنات الصوتية للاسم المرخّم، فآخره هو الهمزة، فإذا رُخِّم بحذف المكوّن الأخير، فإنّ النمط سيصبح (أسما) وهو ما يمكن أن بشير إلى حدث لغوي غير الترخيم، وهو الحذف الصوتي، أي أنه سيبدو كما لو كان تخلُّصاً من الهمزة دون دلالة على الترخيم، كما في قول الشاعر مثلاً:

لا بدّ من صنعا وإن طالَ السَّفرْ

ولــو تحنَّى كــلُّ عــودٍ ودَبَرْ[30]

وهو ليس كذلك، ولهذا فقد لجأ الشاعر إلى حذف جزء من الحركة الطويلة في آخره ليدلّ على أنّه ترخيم، وهو ما عبَّر عنه النحويون بوجود حذف حرفين، بسبب نظرتهم إلى الخط العربي، ورسم الحركات فيه على أنها حروف.

القواعد الدلالية للترخيم

ما يمكن أن يكون غريباً في هذا العنوان الجانبي هو عدم الانسجام بين مصطلح (القواعد) ومصطلح "الدلالية"، فهل يمكن أن نجد قواعد دلالية في النحو العربي؟

لقد رأينا أن النحويين قد انطلقوا في تقعيدهم الترخيم من منطلقات تركيبية كما ينطلقون من أي تركيب إسنادي آخر، وهم في هذا متأثرون بالنظرة التركيبية الصارمة التي نظروا فيها إلى النداء نفسه، وهو أمر خضعوا فيه للناحية التركيبية الشكلية على اعتبار أن المرخَم هو فرعٌ على النداء، والحقيقة أنه من الناحية الشكلية هذه نداء مشبع بالعاطفية، فإذا كان النداء نفسه نمطاً انفعالياً، فإنّ الترخيم نمط انفعاليٌ عالي الوتيرة، إذ إنه يجمع إلى جانب ما يجمعه النداء من الأسلوب التأثري، الجانب الوجداني المتمثّل بالحب والوجد والتطريب والتحبب إلى المنادى، ولكنّ هذا الأمر قد خصُ بأشكال معينة من الاستعمال وملامح بنية المرخَم كما رأينا.

ولكننا نسجِّل للقواعدية العربية أنّها نظرت إلى الدلالة عندما لم تجد بدّاً من النظر إليها، فمستعملو اللغة لا يرخِّمون الأسماء العظيمة الخلقة أو العظيمة القدر، فاسم الجلالة لا يرخَم لعظم منزلته عند أبناء اللغة، كما لا ترخَّم أسماؤه الحسنى للسبب ذاته، ولا ترخَم أسماء الملائكة سواء وُصِفَتْ خلقتها أم لم توصف، لأنها كائنات من خارج الفيزياء التي يمكن التحبّب إليها، وقد كان هذا مدعاة لعجب عبد الله بن عباس عندما بلغته القراءة الشاذة: يا مالِ أو يا مالُ بترخيم اسم خازن النار (مالك) رضي الله عنه، فقرأوا بالترخيم[31]، وهي قراءة عبد الله بن مسعود وعلي بن أبي طالب ويحيى بن يعمر ويحيى بن وثاب والأعمش وأبي الدرداء، وتنسب إلى النبي صلى الله عليه وسلّم[32]، وذلك في قوله تعالى: "فنادوا يا مالك"[33]، وروي عن ابن عباس أنه قال متعجِّباً بعد أن سمعها: ما أشغل أهل النّار عن الترخيم يومئذ![34]

ويبدو أن ابن عبّاس قد نظر إلى السياق الدلالي، فجهنم، وفقاً لوصفها، ليست مكاناً صالحاً للاسترخاء والتطريب، ومن ثمَّ فإنه لا شيء يستدعي الترخيم فيها، ويمكننا أن نزيد هنا أن (مالك) موضع الترخيم ليس مما يرخَم، فهو من الملائكة الغلاظ الشداد، وله خلقة مخيفة لأهل النار، ووجوده في النار مدعاة لإثارة الخوف في صدور أهل النار لا الطرب والترخيم.

والأمر الذي يلفت الانتباه هو استعمال مصطلح الترخيم على لسان ابن عبّاس (ت 69 هـ)، فإذا كانت الرواية صحيحة، فإنه يكون أوّل من استعمل هذا المصطلح استعمالاً مستقراً، قبل نشوء الدرس النحوي الناضج الذي نعرفه، وإنْ كنا نستبعد استعماله في ذلك الوقت المبكِّر.

وقد رأينا من العلماء من يحسِّنُ الترخيم ههنا ويسوّغه بعجز أهل النار عن إتمام الاسم بمكوّناته التامة[35]، وهو أمر قد يبدو بعيداً عن التفسير اللغوي.

ولكن الأمر قد يفسّر في ضوء الناحية النفسية لأهل النار، ذلك أنّه لا عذاب أشد مما هم فيه، ولذلك فهم يستعطفون (مالك) بالترخيم الذي يظهر التحبب الكاذب منهم تجاه هذا الملك العظيم الخلقة.

الأداء اللغوي	الترخيم في النداء	المعرفة بالعَلَمية	الالتزام بالحركة	حذف حرف
يا مالِ، يامالُ	✓	✓	✓	✓

لقد رأينا في هذا الجدول تحقُّق عناصر الأفضلية القواعدية تحقُّقاً تاماً، فهو اسم علم منادى مرخّم على لغة من ينتظر (مالِ) أو من لا ينتظر (مالُ)، ولكنه ترخيم مستغرب لأنه يصطدم مع نظرتنا الدلالية إلى هذه العملية في هذا السياق؛ لأن (مالكاً) من الملائكة، وهم لا يرخمون، لجعلنا بخلقتهم، ويتعارض مع مع يقال عنه من عِظم الخلقة، زيادة على أنّ جهنم ليست مقام ترخيم وليونة، وهو أمر ناتج عن غياب النظرة إلى الجانب الانفعالي للعبارة التي قالها أهل النار.

ومما يمكن أن يحمل على هذا أيضاً قول أبي النجم العجلي:

يا ناق سيري عَنَقاً فسيحا

إلى سليمانَ فنستريحا[36]

فقد رخّم اسم الناقة، فقال: يا ناقُ على لغة من لا ينتظر، وهو أمر غير مقبول عند مستوى درجة الصفر للكتابة، فالناقة كائن فظٌّ غير حبيب إلى القلب؛ لعظم خلقتها، ولكن هذا الأمر ينتهي في الحالات النفسية، فالنافة إذا كانت وسيلة إلى غاية جميلة، فإنها تصبح حبيبة إلى النفس قريبة من القلب، كأن تكون وسيلة النجاة، أو وسيلة الوصول إلى "المحبوب"، وهو هنا سليمان (الممدوح)، ولذا فقد رخمها الشاعر مضفياً عليها صفات إنسانية جعلتها جميلة في عينه.

وقد نظر النحويون إلى هذا الشاهد نظرة تركيبية محضة، فأورد السيوطي أنّ المبرّد لا يجيز ترخيم النكرة، وأمّا النحويون فقد فندوا الأمر بهذا الشاهد[37]، وعدُّوه شاهد إثبات على وروده في لغة العرب. وفيما يأتي جدول لهذا الشاهد:

التركيب	الترخيم في النداء	المعرفة بالعلمية	الالتزام بالحركة	حذف حرف	الاستعمال
يا ناقُ سيري...	✓	☒	✓	✓	✓

وانتهاك القواعدية تركيبياً يأتي من جهة أنّ المرخَّمَ "ناق" جاء في غير الأعلام، فهو وإن كان في النداء، غير علم يمكن أن تحدث بينه وبين المبدع عملية تواصل لغوي، ويزيد القيد الدلالي الأمر صعوبة، عندما أقرّ النحاة أنه لا يرخّم عظيم الخلقة أو "غير الحسن"، فالناقة لا تهتم بالترخيم اللغوي، ولكننا التمسنا سبباً للترخيم، وهو عملية الأنسنة التي عرَضها المرسل لها، فجعلها كالإنسان، فرخّمها.

الأسماء التي لا ترخّم في الاستعمال اللغوي وموضوع الدلالة:

نجد أنّ الترخيم يخصُّ في الأصل الأسماء المناداة في العملية الندائية، ويعود هذا الأمر إلى أن الترخيم يرتبط بالتطرية والتحبب بين طرفي العملية التصويتية الندائية، فالمنادي، وهو الطرف الأوّل في عملية التواصل القائمة على التحبب يريد أن يظهر جانب المحبة للطرف الآخر، وهو المنادى المتحبب إليه، ولهذا، فإن الأصل أن يرخم المنادى فقط.

وإذا أردنا أن نزيد على هذا الأمر شيئاً آخر يعتمد على ما أوحى به النحويون، فإنّ كل عظيم خلقة أو وجود لا يُرخّم، إذ يتنافي الترخيم والتليين والتطريب مثلاً مع لفظ الجلالة (الله)[38] وما يفضي إليه من أسماء الله الأخرى، ولم نعهد أنّ العرب رخّموا اسماً منها كما لم يصغروها بأي معنى من المعاني، وهو أمر تقودنا إليه الاستعمالات اللغوية الواردة عن العرب، ولا نستند فيه إلى أدوات دينية مثلاً.

ولم نعهد في الاستعمالات العربية ما يشي بأنّ العرب رخّموا أسماء الملائكة، إلا ما ورد من قراءة ترخيم اسم (مالك) خازن النار، وقد أوردنا في هذه الدراسة أنه ترخيم لا يمكن تفسيره قواعدياً، بل أظهرت دراستنا هذه بأنه مما يمكن إحالته إلى التفسير النصي المعتمد على قواعد دلالية نفسية تخص وضع أهل النار يوم القيامة.

وعلى العموم، فإنّ كل ذي خلقة عظيمة مخيفة لا يمكن ترخيمه في ظل وجود قواعد دلالية تخص مواقف الترخيم المختلفة المتعلقة برمّتها بالتطريب والتليين وحالات السعة والدعة والحبور والتحبُّب، كالحيوانات المخيفة العظيمة الخلقة، وأسماء الكائنات العظيمة وأسماء الشهور، إلا إذا تعلّق الأمر بالأنسنة وإضفاء السمات الإنسانية على المرخم على الرغم من أنه لا ينتمي في غالب الأحيان إلى المنظومة الإنسانية، وفقاً لما رأينا من ترخيم بعض الشعراء للناقة مثلاً، وقد أوردت الدراسة مثل هذا الأمر.

الترخيم بالتأثير:

الحقيقة التي أقرّها النحويون وبنوا عليها قواعد الترخيم هي أنّ الترخيم يكون في النداء، وهو أمر تركيبي دلالي كما أسلفنا؛ تركيبيٌ لأنه التزام بالقواعدية يستدعي الحكم على أي ترخيم

خارج النداء بأنّه شاذّ، وهو أمر يخص القواعدية ولا يدخل في بناء حكم الشذوذ على اللغة نفسها، ودلالي لأنّ المرخّم يكون مواجها بالحدث اللغوي "الترخيم" إذ لا معنى له دون أن يكون المرخّم طرفاً في العملية اللغوية أو الحدث الكلامي، أو مواجهاً للمرسل نفسه؛ لأنه سيفقد قيمته التأثيرية.

ولكن الالتزام بالقاعدة التركيبية قد لا يخدم السياق الاستعمالي، إذ قد يبلغ الانفعال مدى كبيراً ويقطع شأواً بعيداً في الكلام، فينتقل الترخيم إلى لفظ آخر يتعلّق بعملية النداء نفسها، فيقع الاسم المجاور لهذه العملية، كما في قول ذي الرُمّة:

ديار ميّة إذْ مَيُّ تساعفنا ولا يرى مثلها عجم ولا عرب[39]

فالأمر لا يبدو قواعدياً من وجهة نظر النحويين، فهو لم يرخّم (مية) الأولى، وهو أمر متوقّع؛ لأنه ليس بمنادى، بل هو مضاف للمنادى، ومع هذا فإنّ الشاعر لم يرخمه، بيد أنّه رخّم الاسم نفسه بعد الظرف المبني "إذ"، فقال: إذْ ميُّ، ولو كان له أدنى علاقة بالمنادى ما نوّن الاسم المرخّم، وهو أمر يمكن أن نحمله على الترخيم بالتأثير ودلالة الحالة الشعورية الممتدّة في نفس الشاعر، فقد نادى "ديار ميّة" أولا ولم يرخّم لأنّ (مية) ليست منادى، ولكنه عندما ذكر المساعفة ترقق إلى مية، فرخمها استمطاراً لمحبتها.

والجدير بالذكر أن سيبويه لم يحمل (ديارَ مية) على النداء، بل هو منصوب بفعل محذوف تقديره "اذكر"[40]، مما ينفي عنه قواعدية الترخيم تركيباً، ولذا فقد حملوا (إذ ميُ) على الشذوذ، وهو انتهاك للقواعدية، ولكنّه مع هذا يظل محتفظاً بدلالته الإفصاحية، كونه يحثُ به على أمرٍ ما ليلتزم به المتلقّي.

التركيب	الترخيم في النداء	المعرفة بالعلمية	الالتزام بالحركة	حذف حرف
ديار مية إذ ميُ...	☒	✓	✓	✓

والشرط القواعدي الأول هو من الشروط المهمة، ولكن الاسم المرخّم هو نفس الاسم المنادى (المذكور) ولهذا رخّمه انطلاقاً من هذا، ولوجود عنصر المدح والثناء.

ومما يمكن أن نسوقه على هذا النوع من الترخيم قول الشاعر:

لنعم الفتى تعشو إلى ضوء ناره طريفُ بن مالِ ليلة الجوع والحَصَر[41]

وهو شاهد لا يمكن حمله على النداء، وهذا أول مظاهر مجانبته القواعدية، فقد جاء في عنصر انفعالي آخر وهو عنصر دال على المدح، فالممدوح هو (طريف)، ولعل في تقرير اسميته عند الكوفيين أو فعليته عند البصريين ما يحول دون فهم التركيب، ولكن خضوع التركيب للعلاقات الإسنادية عند النحويين هو الذي جعل النحويين يقررون خبريته، ولكن الأمر لا يمكن أن يكون خبرياً لأنه يتعلق بمشاعر النفس وانفعالاتها، ولهذا فقد أراد أن يمدح (مالك) أيضاً فوجد أن ترخيمه دلالة على التحبب، فأعطاه تأثير ترخيم (طريف) في غير النداء، وهو تفسير لا يمكن أن يخضع للقواعدية وهو ما عبّر عنه سيبويه بأنّ الشاعر جعل ما بقي من الاسم بعدما حُذِفَ منه بمنزلة الاسم الذي لم يحذف منه شيء[42]، ولهذا فإنه أثبت التنوين، مما يعني أنه ابتعد عن باب النداء الذي يكون فيه الترخيم القواعدي.

التركيب	الترخيم في النداء	المعرفة بالعلمية	الالتزام بالحركة	حذف حرف	الاستعمال
طريف بن مالِ	☒	✓	✓	✓	✓

ويبدو من جدول الأفضلية هذا أنّ التركيب قد أخلّ بشرط واحد من شروط الأفضلية القواعدية، وهو شرط النداء، ومع أنه شرط واحد فإنه قد أتى في أول الجدول مما يشير إلى صعوبته قواعدياً، ولذا، فإنه لا يمكن توجيهه قواعدياً، بل يكون توجيهه دلالياً، فقد بدأ الشاهد بأسلوب المدح، وهو تركيب انفعالي، وموقف المدح موقف تأثيريّ، وهو ما دفع إلى ترخيم (مال) الذي يبدو صاحب حضور انفعالي في نفس المبدع والمتلقي.

ومن الشواهد التي ننظر إليها على أنها شاهد على الترخيم بتأثير غيرها ما جاء في قول الشاعر:

أبــا عروَ لا تبعد فكلُ ابن حــرة سيــدعوه داعي ميتة فيجيب[43]

وقد رخّم (عرو) والأصل عروة على الرغم من أنه غير منادى، ولكنه مضاف إلى المنادى، ويمكن أن نلتمس له أسباباً نصية من القصيدة تحتملها الدلالة اللغوية، كأن يكون (عروة) هذا أثيراً عند أبي عروة نفسه، أو عند الشاعر، فأومأ إلى هذه المنزلة عن طريق ترخيم المضاف إليه، على أنه مهما كان الأمر، فإنه لا يستحق الترخيم تركيبياً لأنه فقط شرط القواعدية، ولكن ترخيمه كان بدافع نفسي وهو القرب من نفس صاحب الرسالة "الشاعر" وهو ترخيم بالتأثير.

التركيب	الترخيم في النداء	المعرفة بالعلمية	الالتزام بالحركة	حذف حرف
أبا عروَ لا تبعد	☒	✓	✓	✓

ومن ذلك أيضاً قول زهير بن أبي سلمى:

خذوا حذركم يا آل عكرم واذكروا أواصرنا والرحم بالغيب يذكر[44]

التركيب	الترخيم في النداء	المعرفة بالعلمية	الالتزام بالحركة	حذف حرف
خذوا حِذرَكم يا آل عكرم	☒	✓	✓	✓

وهو شاهد على ترخيم المضاف إليه بتأثير المضاف المنادى[45]، ونعده شاهداً على الترخيم بالتأثير؛ لأنه فقد شرطاً من شروط القواعدية، وهو أنّ الترخيم يكون للاسم المنادى، ويقال فيه ما قيل في الشاهد السابق من تأثير الناحية النفسية؛ فالشاهد جاء للتحذير "خذوا حذركم"، والمنادى هو (آل) ليس بمعزل عن عكرمة، وهو لا يرخّم لبنيته ولأنه ليس اسم علم، فرخّم "عكرم" لتوصيل الرسالة الكلامية، وإظهار حرصه على قوم "عكرم".

وعلى الرغم من أنّ العملية اللغوية في هذا البيت كانت تخصّ النداء، فإنّ (عكرمَ) نفسه ليس منادى بذاته، من الناحية التركيبية على الأقل، وأما من الناحية الدلالية فإنّهُ متعلق بالمنادى مباشرة لأنّه مضاف إليه، ولم يمكن ترخيم (آل) لافتقار بنيته إلى إمكانية الحذف ولأنه ليس علماً.

الترخيم بالإيماء:

نقصد بهذا النوع من الترخيم أن المتكلم قد يرخّم، ولكنه لا يحذف، مما يعني اختراق قاعدة "حذف أواخر الاسم في النداء خاصة"، وهو أمر لا يمكن للشاعر أو المتكلم أن يكون على وعيٍ به إلا إذا كان يعرف القواعد، أو أنه متمكّن من وعيه في استعمال اللغة، ذلك أنّه يستغني عن الحذف كما يبدو من استعماله اللغوي ولكنه يبقي شيئاً من اختراق القواعد يدلُ عليه.

ومن أجل توضيحه، فإنه يمكننا أن نأخذ عليه مثالاً قد لا يتكرر كثيراً في الكلام العربي المنقول عن العرب في زمن الاستشهاد، وهو قول النابغة الذبياني:

كليني لهمٍّ يا أُمَيْمَةَ ناصبِ وليلٍ أقاسيه بطيءِ الكواكبِ[46]

تُحَتِّمُ القواعد اللغوية للنداء أن يكون الاسم المفرد المنادى في حالة بناء على الضمّ، ما لم يكن مرخّماً على لغة من لا ينتظر، أي: يا أُمَيْمَةُ في حالة النداء العادي، أو يا أميمُ في حالة الترخيم على لغة من لا ينتظر، ويا أميمَ على لغة من ينتظر الحرف الأخير، وأيُّ تغيير في قيم الحركات البنائية يعدُّ خروجاً على هذه القواعدية[47].

وفي هذا البيت الشعري لا نلمح أثراً تقتضيه الضرورة الشعرية، إذ لا فرق في الإيقاع الموسيقي للبيت بين الضمة والفتحة، فكلاهما يملك الإيقاع نفسه، ولكن المنقول عن النابغة الذبياني أنه قال: (يا أُمَيْمَةَ) بالبناء على الفتح، وهو أمر يجعل الأداء في مواجهة القاعدة التركيبية مباشرة، وليس له أي تفسير من جهة القواعدية، ولكنّ تفسيره كان يجنح إلى الدلالة، فالنابغة رخّم الاسم المنادى (أميمة) على لغة من ينتظر، ولما واجه مشكلة إيقاعية، وفقاً لما يقولونه، أعاد التاء المحذوفة مع بقاء حركة الترخيم على ما كانت عليه قبل إعادة التاء، ليشعرها أنه رخّمها.

وهو تحليل معقول نأخذ عليه وعيَ الشاعر الكبير بالقاعدة، ولذا فإننا نقول إنه أثبت التاء مباشرة دون أن يكون واعياً بالقيم العروضية وقواعد اللغة، فهو يملك مساحة من وعي ابن اللغة بلغته، وليس وعي العارف بالقواعد النحوية أو القيم العروضية.

وأمّا إذا أردنا أن نتّهم النابغة بالقصور في استعمال القواعد التركيبية للغة العربية، فإنه يمكن القول بالتوهُّم، وهو أنّ النابغة قد توهَّمَ أنّ تركيب: يا أميمة ناصبِ هو تركيب إضافة: أميمة مضاف وناصبِ مضاف إليه، فنصبه على هذا، وهو أمر لم يجرؤ على قوله أيُّ من نحويي العرب القدامى؛ فالنابغة واحد من الشعراء الفحول الذين كانت تضرب لهم قباب التحكيم في الأسواق الأدبية، فمن يجرؤ على اتّهامه؟!

التركيب	الترخيم في النداء	المعرفة بالعلمية	الالتزام بالحركة	حذف حرف
كليني لهمٍّ يا أميمةَ	✓	✓	☒	☒

ومن هنا جاء توليدنا لمصطلح الترخيم بالإيماء، وعنصر الإيماء هنا هو الفتحة التي تخالف القواعدية ومقتضاها الضمة، وإنما أومأ بالفتحة إلى أنّه رخم على لغة من ينتظر، إذْ لا تفلح لغة من لا ينتظر في إظهار الترخيم وفقاً لهذه النظرة، لأنّها ستلتقي مع ضمّة البناء القواعدية تماماً.

ويتبين لنا من جدول الأفضلية أنّ التركيب قد أخلَّ باثنين من الشروط القواعدية، وهما الحركة الإعرابية أو حركة الآخر، وحذف الحرف، وهما شرطان من شروط القواعدية المهمة، ولكنهما لا يعنيان إخلالاً بالاستعمال اللغوي، لأن هذا لم يؤدِّ إلى رفض التركيب وإخراجه من الأفضلية الاستعمالية المتحقِّقة.

الخلاصة

بعد أن فرغت هذه الدراسة من عرض الأداءات اللغوية الخاصة بباب الترخيم يمكن القول إنّ هذا الباب قد تداخلت فيه القواعد التركيبية التي وضعها النحويون مع تلك القيود الدلالية المتعلّقة بهذا الباب؛ لأنه باب انفعالي يرتبط بالموقف من جهة، وبالفرد المرخَم من جهة أخرى، وقد ركّز النحويون على الجانب التركيبي أكثر مما فعلوا بالجانب الدلالي.

ولَمّا كانت الأبواب المتعلّقة بانفعالات النفس وتنوعها كثيرة، فإنّ هذا يعني أنّ كثيراً من الأداءات اللغوية الأخرى بحاجة إلى إعادة نظر لتفسيرها تفسيراً سياقياً، أو وفقاً لما تحتمله الطاقات اللغوية التي تحملها اللغة، مثل أبواب: النداء، والتعجُّب والإغراء والتحذير والاختصاص، وجانب كبير من المفعول المطلق والمفعول به وفقاً لما نراه من شواهد وأداءات لغوية في كتب النحويين.

وانطلاقاً مما عرضنا من الأمثلة، فإننا يمكن أن نرى تفاوتاً بين أشكال الأداء اللغوي في باب الترخيم من الناحية القواعدية، وهو ما خوّلَ النحويين بإطلاق صفات الشذوذ أو البعد عن القاعدة، لأنّ الأداء اللغوي والتواصل أهمُّ عند أبناء اللغة ومستعمليها من الالتزام بالقواعد التركيبية الصارمة، التي رأيناهم يحكِّمونها بالأداء اللغوي.

ومن هنا فقد عمدت الدراسة إلى تقسيم أشكال الترخيم الوارة في اللغة إلى أقسام لم يذكرها النحويون إلا على سبيل أنها شاذة، كالترخيم بالتأثير والترخيم بالإيماء وغيرهما من المصطلحات التي طرحتها هذه الدراسة في ثناياها.

ويمكننا أن نزيد أيضاً أنّ الوقوع تحت انفعال النفس ورفع وتيرة الإفصاح عند المتكلم بحسب الموقف الكلامي يؤثران في التركيب اللغوي بما لا يوقعه تحت سطوة القواعدية.

ونزيد أيضاً أن مخالفة النمط التركيبي في اللغة العربية أمرٌ لا يعني بحالٍ من الأحوال أن هذا النمط المخالف قد فقد أفضليته مطلقاً، بل ظل محتفظاً بأحقيته اللغوية، لأنه حقق أفضلية أكثر أهمية، وهي أفضلية الاستعمال في فترة القيد الزمني.

Emotional Structure between Grammatical Rules and Semantic Restrictions: Apocopation as a Model

Yahya Ababneh, *Department of Arabic Language, Yarmouk University, Irbid, Jordan.*

Abstract

The aim of this study is to reveal that emotional language may require emotional energies that make grammar control of language performance limited, And this is something that we assume that the positions of high emotion require a different tone from the flat tone in the case of the news language, So we have chosen one of the doors of emotional performance that represents the **automatic** performance of speakers, It is the **door** to the Apocopation that we **carry** on tugging, singing and profiting in most of the language-based situations on the subject of the **appeal**, Which makes this section a reality between significance and composition, The study focused on the aspects of its appearance on the grammar and its forms in the performance of the living language and used in its study the descriptive analytical method.

الهوامش

(1) الزمخشري، المفصل في علم العربية، ص47.

(2) برجشتراسر، التطور النحوي للغة العربية، ص70.

(3) أحمد كشك، من وظائف الصوت اللغوي، محاولة لفهم صرفي ونحوي ودلالي، ص102-105.

(4) سيبويه، الكتاب، 1/23-24.

(5) قررت القواعد النحوية العربية أنّ الترخيم لا يكون إلا في النداء، وإذا وقع في غير النداء فإنّ القاعدة تنظر إليه على أنه من ضرورات الشعر، ينظر: السيوطي، همع الهوامع 79/3.

(6) أبو البقاء الكفوي، الكليات، 364/4، ومنطلق النحويين من هذا في النداء صحيح تماماً، ولكنه يحتاج إلى إضافة الأبعاد الدلالية كما فعل ابن يعيش عندما نبّه على أحوال المنادى السابقة، ينظر: ابن يعيش، شرح المفصّل، 15/2.

(7) توسّع بعض الباحثين في مفهوم الترخيم، كما فعل برجشتراسر في كتابه التطور النحوي للغة العربية، عندما عرّفه بأنه اختصار الكلمة وحذف أكثر من حركة واحدة منها، وضمّ إلى الترخيم المعروف كثيراً من أنماط الحذف في السؤال والتحية والقسم والفن، وذلك نحو: أيش في السؤال، أي: أي شيء ومن التحية: عم صباحاً، وأصلها انعم صباحاً، ومن القسم: مُ الله، أي: أيمن الله، بل لقد

أضاف إليها الحذف الصرفي، نحو: تَذَكَّرون وأصلها: تتذكَّرون، والنحت نحو: بلحارث، أي بنو الحارث، وزاد أيضاً الحتّ اللغوي أو بلى الألفاظ نحو: سأفعل من سوف أفعل وغيرها، ينظر: برجشتراسر، التطور النحوي للغة العربية، ص70-71. وهو توسُّع في المفهوم لا مسوِّغ له.

(8) أورد المرادي أنّ بعض النحويين قد عدّ (يا) التي للنداء اسم فعل يتحمّل ضميراً مستتراً فيها، وربما كان الرأي للكوفيين، ينظر: المرادي، الجنى الداني، ص355، وهو أمر قواعدي محض، ولا يهمنا أنّ الرأي للكوفيين أو لغيرهم الآن، ولكنه رأي يخلّص الجملة من السمت غير الإسنادي.

(9) أورد سيبويه في الكتاب، 224/4 أن ياء النداء تنبيه يكون في النداء وفي الأمر كأنّ المتكلم ينبّه المأمور، وهو تعبير دقيق عما يكون من وظيفتها، وينظر: ابن السراج، الأصول في النحو، 221/2، والرمانيّ، معاني الحروف ص92.

(10) سيبويه، الكتاب، 182/2.

(11) سيبويه، الكتاب، 182/2.

(12) هاجم المرحوم أحمد عبد الستار الجواري مذهب القدماء في اعتبار النداء وما يحمل عليه من التراكيب الخبرية، وهو ينطلق في نقده رأي القدماء من أنّ المنادى إنما نُصب إيثاراً للفتحة الخفيفة، ينظر أحمد عبدالستار الجواري، نحو المعاني، ص145-146، وهو الرأي الذي قال به المرحوم إبراهيم مصطفى، في كتابه المعروف، إحياء النحو، ينظر، ص 78-88.

(13) عبد الغني الدقر، معجم النحو، ص98.

(14) الترخيم في اللغة هو التليين، والقصد منه هو التخفيف في الأسماء المفردة، سيبويه، الكتاب، 239/2، وينظر المعنى اللغوي في: ابن منظور، لسان العرب، (رخم) 234/2، والزجاجي، الجمل في النحو، ص168، وربط ابن جني الترخيم بالأسماء المناداة المضمومة، أي المبنية على الضم، لأن البناء على الضم يكون في الأسماء المعرفة بالعلمية أو النكرة المقصودة التي يجوز فيها الترخيم، ينظر: ابن جني، اللمع في العربية، ص216، ولا يكون الترخيم في الأسماء المضافة ألبتة، انظر: ابن السراج، الأصول في النحو، 437/1.

(15) المبرّد، المقتضب 268/4، و222/4.

(16) ابن منظور، لسان العرب (ندب) 754/1.

(17) الشريف الجرجاني، التعريفات، ص250، وينظر: سيبويه، الكتاب، 220/2، والمبرِّد، المقتضب 268/4، والزجاجي، الجمل، ص176.

(18) ابن منظور، لسان العرب (رخم) 234/12.

(19) ابن فضّال المجاشعي، شرح عيون الإعراب، ص268-269، وقد عدّ هذه الأبواب التأثيرية في باب واحد من حيث تحكّم الدلالة فيها، وهي أبواب الترخيم والندبة والاستغاثة، إذ لا توجّه هذه الأبواب إلى نكرة.

(20) مهلهل بن ربيعة، ديوان مهلهل، ص 58، منشورات الدار العالمية بتقديم طلال حرب، وينظر: السيوطي، همع الهوامع 42/3.

(21) مهلهل بن ربيعة، ديوانه، ص58.

(22) عبد الغني الدقر، معجم النحو، ص98-99.

(23) ابن عقيل، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، 270/2.

(24) الفرق بين لغة من ينتظر ومن لا ينتظر في أسلوب الترخيم لا يعتدُ به من ناحية دلالة التركيب اللغوي عامة، فعلى لغة من ينتظر يكون المرخَم مبنياً على الفتح في (يا فاطمَ)، ومعنى من ينتظر: بقاء الاسم محتفظاً بحركة ما قبل المحذوف في الأصل، وأما لغة من لا ينتظر فيبنى المرخَم فيها على الضم، فيعامل من وجهة نظر القاعدة كما لو أنه اسم منادى على تمام بنيته، ويظلُ الفرق بينهما تركيبياً إعرابياً.

(25) لم ينسب هذا الشاهد إلى قائل معروف، وهو في ابن هشام، أوضح المسالك، 224/1.

(26) امرؤ القيس، ديوان امرئ القيس، ص24، برواية:

أحارِ ترى برقاً كأنَّ وميضه كلمع اليدين في حبيٍّ مكلّلِ

ولا شاهد فيه على ترخيم النكرة المقصودة وفقاً لهذه الرواية، ولكنه ترخيم (حارث) على لغة من ينتظر. ورواية الشاهد (أصاحِ) في الزوزني، شرح المعلقات السبع، ص50، وهي كذلك في بعض المصادر النحوية.

(27) ينظر ابن هشام، أوضح المسالك، 58/4.

(28) ينظر: الفرزدق، ديوان الفرزدق، ص334 (بتحقيق علي فاعور)، وينظر: سيبويه، الكتاب، 257/2.

(29) ينظر، لبيد بن ربيعة العامري، ديوان لبيد، ذيل الديوان، ص281.

(30) البيتان في: السيوطي، همع الهوامع، 337/6، وابن هشام، أوضح المسالك، 296/4.، ولا يعرف قائل هذا الرجز.

(31) ينظر: ابن فضال المجاشعي، شرح عيون الإعراب، ص269.

(32) ابن خالويه، مختصر في شواذ القرآن، ص136، باختلاف يسير في رواية رد فعله على قراءة الترخيم على لغة من ينتظر، وينظر أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، 28/8، والقراءة مألوفة في الشواهد التي ساقها النحاة على هذا الخروج القواعدي، وكان أغلبهم يكتفي بأنها على لغة من ينتظر الحرف الأخير.

(33) سورة الزخرف/77.

(34) ينظر: ابن خالويه، مختصر في شواذ القرآن، ص136. وفيه أنه قال: ما أشهد أهل النار إلى الترخيم يومئذ.

(35) ابن خالويه، مختصر في شواذ القرآن، ص136.

(36) أبو النجم العجلي، ديوان أبي النجم العجلي، ص123، وينظر: سيبويه، الكتاب، 35/3.

(37) ينظر السيوطي، همع الهوامع، 79/3-80.

(38) يعود الأمر من وجهة نظر هذه الدراسة إلى أننا لا نجد ترخيماً للفظ الجلالة إلى أكثر من سبب، فالأول هو السبب التعظيمي ونظرة الإجلال السامية التي ينظرها أبناء اللغة إلى لفظ الجلالة والذات الإلهيّة أولاً، وهو أمر ينطبق على أسماء الله الحسنى وأسماء أنبياء الله أيضاً، زيادة على غموض مكوّنات البنية، فبنية لفظ الجلالة (الله) غير واضحة في العربية أو اللغات السامية الأخرى.

(39) ذو الرمة، ديوان ذي الرمة، ص12.

(40) ينظر السيوطي، همع الهوامع، 79/3-80.

(41) امرؤ القيس، ديوان امرئ القيس، ص142، وينظر: ابن عقيل، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، 277/2.

(42) سيبويه، الكتاب، 254/2.

(43) ينظر الشاهد غير منسوب في: أبو البركات الأنباري، أسرار العربية، ص 239 وقد حمله في هذا الموضع على الترخيم عندما قال: "أراد أبا عروة، إلا أنه حذف التاء للترخيم" وهذه الأنماط محمولة عنده على الضرورة الشعرية، وينظر: المرجع نفسه، ص240، والشاهد في: ابن هشام، أوضح المسالك، 56/4 (رقمه 451)، وقد ساقه ابن هشام شاهداً على رأي الكوفيين بأنه يجوز ترخيم الاسم المركّب تركيباً إضافياً بترخيم الجزء الثاني منه (المضاف إليه)، وهو أمر لا تجيزه القواعدية.

(44) أبو البركات الأنباري، أسرار العربية، ص239، برواية خذوا حظكم، وهي رواية لا تخل بموضع الاستشهاد، وهو (عكرم) المضاف إلى االمنادى (آلل).

(45) أبو البركات الأنباري، أسرار العربية، ص239.

(46) النابغة الذبياني، ديوان النابغة، ص40. ومما يدلُّ على ارتباطه بالانفعال الشديد أنه قال بعده في وصف هذا الليل:

تطاولَ حتى قلت: ليس بمِنقضٍ ... وليس الذي يرعى النجوم بآيبِ

وصَدْرٍ أراحَ الليلُ عازِبَ هَمِّهِ ... تَضاعَفَ فيه الحُزنُ من كلِّ جانبِ

(47) للتوسع في لغتي الترخيم ينظر مثلاً: ابن هشام، أوضح المسالك، 65/4-67.

المصادر والمراجع

إبراهيم مصطفى، **إحياء النحو**، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1959.

أحمد عبد الستار الجواري، **نحو المعاني**، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، بغداد، 1987.

أحمد كشك، **من وظائف الصوت اللغوي**، محاولة لفهم صرفي ونحوي ودلالي، مطبعة المدينة، القاهرة، 1983.طامرؤ القيس، ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، (د.ت).

الأنباري، أبو البركات، **أسرار العربية**، تحقيق محمد بهجة البيطار، مطبعة الترقي، دمشق، 1957،

برجشتراسر، **التطور النحي للغة العربية**، نشره رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي بالقاهرة ودار الرفاعي بالرياض، 1982.

أبو البقاء الكفوي، **الكليات**، تحقيق عدنان درويش وزميله، دمشق، ط1، 1974.

الجرجاني، الشريف، **التعريفات**، مكتبة لبنان، بيروت، 1978.

ابن جني، **اللمع في العربية**، تحقيق فائز فارس، الكويت، 1972.

أبو حيان الأندلسي، **البحر المحيط**، عالم الفكر، بيروت، عن طبعة مطبعة دار السعادة، القاهرة، 1328ه.

ابن خالويه، **مختصر في شواذ القرآن من كتاب البديع**، تحقيق برجشتراسر، دار الهجرة، الرياض، (د.ت).

الرماني، **معاني الحروف**، تحقيق عبد الفتاح إسماعيل شلبي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، (د.ت).

ذو الرمّة، **ديوان ذي الرمّة**، تحقيق عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، 2006.

الزجاجي، **الجمل في النحو**، تحقيق علي توفيق الحمد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ودار الأمل، إربد، 1984.

الزمخشري، **المفصل في علم العربية**، نشره محمد بدر الدين النعساني الحلبي، دار الجيل، بيروت، (د.ت).

الزوزني، **شرح المعلقات السبع**، دار الجيل، بيروت، ومكتبة المحتسب، عمان، 1972.

ابن السراج، **الأصول في النحو**، تحقيق: عبدالحسين الفتلي، بغداد والنجف، 1983.

سيبويه، **الكتاب**، تحقيق عبد السلام هارون، عالم الكتب، بيروت، مصورة عن طبعة الهيئة المصرية للكتاب، (د.ت).

السيوطي، **همع الهوامع في شرح جمع الجوامع**، تحقيق عبد العال سالم مكرم وعبد السلام هارون، دار البحوث العلمية، الكويت، 1975-.

عبد الغني الدقر، **معجم النحو**، الشركة المتحدة للتوزيع، بيروت، 1982.

ابن عقيل، **شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك**، نشره يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر، بيروت، 1991.

الفرزدق، **ديوان الفرزدق**، بتحقيق علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987.

ابن فضال المجاشعي، **شرح عيون الإعراب**، تحقيق عبد الفتاح سليم، دار المعارف، القاهرة، 1985.

لبيد بن ربيعة العامري، **ديوان لبيد بن ربيعة**، شرح الطوسي، جمعه وحققه حنا نصر الحتي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1993.

المبرّد، **المقتضب**، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، 1989.

المرادي، **الجنى الداني في حروف المعاني**، تحقيق فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1983.

ابن منظور، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، 1955.

المهلهل بن ربيعة، **ديوان المهلهل بن ربيعه**، تصحيح طلال حرب، الدار العلمية، بيروت.

النابغة الذبياني، **ديوان النابغة الذبياني**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، (د.ت).

أبو النجم العجلي، **ديوان أبي النجم العجلي**، تحقيق محمد أديب جمران، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، 2006.

ابن هشام الأنصاري، **أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك**، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الفكر، بيروت، (د.ت).